القسم الثانى

علم الاجتماع الحضرى

الفصل السادس : ظاهرة التحضر بين الادانه والتجميد

الفصل السابع : علم الاجتماع الحضرى

الفصل الثامن : الاتجاه والمنهج فى علم الاجتماع الحضرى

الفصل التاسع : المدنية : دورها وشكلها وبناؤها

الفصل العاشر : سكان المدينة

الفصل السادس

ظاهرة التحضر بين الادانة والتمجيد *

دراسة التحضر فى نطاق علم الاجتماع ، أو قل على وجه العموم : دراسة الاجتماع الحضرى ، دراسة جديدة ، بحكم موضوعها وهو المدينة . فالمدينة لم تصبح ظاهرة طاغية مؤثرة تفرض نفسها على دارس المجتمع الا فى وقت حديث نسبيا . ولا يعنى كلامنا اطلاقا أن المدينة أصلا ظاهرة حديثة أو جديدة ، وانما نمو المدن على هذا النحو هو الذى أصبح يفرض نفسه ، هو الجديد فى الأمر ، وهو مبعث الاهتمام بتخصيص فرع مستقل من فروع علم الاجتماع لدراسة المدينة (١) .

ورغم تعدد الاشارات التى يمكن أن نوردها عن المدينة : طبيعتها الخاصة ومشكلاتها النوعية فى فترة أواخر القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ، فان مقال بارك Park الهام عن المدينة ، والذى نشره عام ١٩١٥ ، ثم ضمنه مع مقالات أخرى كتابه الأشهر عن « المدينة »

(*) كتب هذا الفصل الدكتور محمد الجوهرى .

(١) أشار جمال حمدان فى مقدمة كتابه « جغرافية المدن » عن « تاريخ جغرافية المدن » الى بعض أوجه التشابه فى التطور بين جغرافية المدن وعلم الاجتماع الحضرى ، فكما بدأت جغرافية المدن من الاهتمامات الاقليمية العامة أولا ، بدأ علم اجتماع المدن (الاجتماع الحضرى) Urban Sociology من الدوافع الرومانتيكية الانسانية التى أثارت عند بعض المصلحين الاجتماعيين الصورة الاجتماعية الكالحة لحياة الفقر بين عمال المدن الصناعية الجديدة فى عصر الرأسمالية والتصنيع ، وتكاد تتعاصر أولى دراسات ومونوجرافات اجتماعية على المدن مع المحاولات التأسيسية فى جغرافية المدن ... ، جمال حمدان ، جغرافية المدن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٣ .

الذى صدر عام ١٩٢٥ (٢) ، يعتبر دون مبالغة نقطة البدء فى التأليف العلمى المتخصص فى الاجتماع الحضرى ٠

على أننا لسنا هنا بصدد التاريخ لعلم الاجتماع الحضرى ، فهذا أمر يضيق عنه هذا المقام ، ولكننى أكتفى بالتأكيد على أنه اذا كان علم الاجتماع قد نشأ فى أوروبا وبفضل اسهامات أوروبية ، فقد نشأ الاجتماع الحضرى فى أمريكا بفضل اسهامات امريكية خالصة ، وبسبب ظروف الانفجار الحضرى الضخم الذى واكب الرواج الأمريكى الهائل ٠

ولكن هذه النشأة « الانفجارية » ـ على حد تعبير جمال حمدان ـ الأمريكية لعلم الاجتماع الحضرى لا تعنى أنه منبت الصلة بخيوط الفكر السوسيولوجى الأوروبى ، ثم هو بعد اكتمالة ونضجة لم يعد مقصورا على الظروف الأمريكية وعلى الواقع الأمريكى ، وانما تعددت داخلة النظرات وتباينت الاتجاهات بتعدد البيئات التى تصدى لدراستها وتباين المنطلقات التى صدرت عنها الدراسات فى هذا الميدان الجديد الهام ٠

وهذه النقطة بالذات ، أعنى تباين المنطلق ـ الأيديولوجى ان شيئنا ـ الذى نصدر عنه دراسات الاجتماع الحضرى هى الموضوع الذى نود أن نفرد له هذه الدراسة ، فصلابة الأساس ضمان لصلابة البناء الذى ينهض عليه وأمان لمستقبله ، فهل التحضر شر خالص يجب التصدى له ، وتقليمه حيث وجد ، وشن الحرب الشعواء عليه ؟ أم هو خير كل الخير ، لا وجود لحياة عصرية خارج وعاء حضرى ، ومن ثم يتحتم تشجيع التحضر والاسراع فيه بأقصى معدل ممكن ، وادخال كافة سكان البلاد ـ وخاصة النامية منها ـ

---

(٢) Robert E. Park : «The City : — Suggestions for the Investigations of Human Behavior in the City Environment», 1915.

وفى عام ١٩٢٥ أعاد بارك نشر هذا المقال مع مقالات جديدة في كتابه المدنية ، ثم في عام ١٩٢٦ بالاشتراك مع ارنست بيرجس كتاب The urban community

ثم تتابعت مؤلفات بارك بعد ذلك انظر على سبيل المثال :

R. Koenig (ed.), Hanébuch der empirischen Sozialforschung, Stuttgart, Band 2, 1969, p. 672.

فى زمرة « اهل الحضر ؟ » • تلك مواقف أساسية أثرت على دراسات علماء الاجتماع للمدينة دراسة علمية فى مختلف البلاد الغربية • وكان من الحتمى أن ينتقل بعض هذا التأثير ـ وقد نقلنا عن تلك البلاد ، أو نحن نحاول ، التراث السوسيولوجى برمته ـ ومن ثم يصبح فحص هذا الأساس شرطا ضروريا قبل التوغل فى تناول مسائل التحضر ومشكلاته فى بلادنا • ونحن لا نستهدف حسم هذه القضية بشكل نظرى وحسب ، بقدر ما نريد أن نخلص الى وضع هذا التساؤل فى وضعه الصحيح فى بلادنا ، خاصة ـ وكما أسلفت ـ يؤثر ذلك على أمور عديدة من بينها سياسة التخطيط الحضرى •

***

حرص أكثر من دارس ممن كتبوا فى علم الاجتماع الحضرى على التأكيد فى بداية حديثهم على ضرورة اتخاذ منطلق موضوعى من قضية التحضر ، فلا ننحى على المدينة الكبيرة باللائمة فى كل ما نراه يعكر صفو الحياة الحضرية من مشكلات وما تمر به من أزمات ، ولا نغالى فى تمجيدها باعتبارها الوعاء الوحيد الممكن لحدوث تقدم اجتماعى ، بل الأولى أن نحاول استيضاح موقع المدينة الكبرى على خريطة اشكال النمو الاجتماعى ، وما اذا كان هناك مبرر لاعتبارها تكوينا أساسيا لا غناء عنه من تكوينات الحياة الاجتماعية ، أو الاكتفاء باعتبارها مجرد ظاهرة هامشية من ظواهر هذا النمو ، تمثل تراكما عدديا من جزئيات اجتماعية صغيرة لا نهائية العدد •

فلا يكفى لهذا الغرض أن نعمد ـ كما ينادى البعض (٣) ـ الى دفع النقد الموجه الى المدينة ـ الكبرى بنقد مضاد ، فمن شأن هذا أن يقودنا الى سلسلة لا تنتهى من المناقشات والأحكام القيمية الذاتية المتحيزة ، دون أن تطأ اقدامنا أرض الواقع أبدا ، وانما الأجدر أن نلتفت الى الأساس الفكرى لهذا النقد المضاد ، محاولين ـ من خلال البحث التاريخى ـ أن نؤصله فى الواقع الاجتماعى الذى نشأ فيه • فهذا التأصيل التاريخى هو الأقدر دائما

---

(٣) قارن على سبيل المثال :
Bahrdt, Hans Paul, Die moderne Gresstadt, Hamburg, 1961, Kap. 1.P. 35.

على تقريبنا قدر الامكان من جوهر هذا الفكر ـ أى فكر ـ ومعدنه ، مما يجعل موقفنا الذى سنتخذه منه فى النهاية أكثر سلامة وأرسخ قدما · وليس من شأن هذا المنهج الا يفتح أعيننا على الاتجاهات التاريخية المختلفة فى فهم المدينة الكبيرة وتعريفها ، وانما يتيح لنا فى نفس الوقت أن نطرح سؤالا هاما مؤداه : الى أى مدى يمكن تبين بناء موحد نسبيا يجمع بين كل هذه الظواهر المتعددة ، أى تنميطها فى نسق موحد ، أم أن كل مدينة كبيرة تمثل ظاهرة فريدة لا تتكرر ، كانت بمثابة حل فريد لمشكلة فريدة ألقيت على عاتقها ؟ واننا لا نستطيع بالتالى أن نفهم وضعية أى مدينة كبيرة الا فى ضوء ظروفها التاريخية وعوامل نموها وما صاحب هذا النمو من ملابسات · وعليه تتحول دراسة المدن فى علم الاجتماع من مستوى التعميم الى مستوى الحاله ، أو ـ ان شئنا ـ من الدراسات المقارنة الى الدراسات المونوجرافية (٤) ، على أننا نقدر سلفا أنه حتى لو تبين أن نهج الدراسات المونوجرافية هو السبيل الممكن الوحيد ، فان الموقف يسمح بتحديد واستخلاص بعض الأنماط الرئيسية والأبنية العامة ، التى يمكن أن تزيد فهمنا للحالة الفردية التى تعرض لنا هنا أو هناك ·

ولكن قبل أن يصبح هذا نفسه ممكنا ، لابد من وقفة فاحصة أمام المواقف الفكرية من ظاهرة التحضر وتقييم المدينة الكبيرة بصفة عامة · فهذا ، كما قلنا ، مما ييسر المدخل الموضوعى لصلب الدراسة فى علم الاجتماع الحضرى ·

لعله يمكن القول منذ البداية على وجه العموم أن النظرة الأوربية الى مشكلات التحضر قد بدأت بعاطفة معارضة للمدينة الكبيرة ، بكل ما تنطوى عليه من ظواهر · وسوف نغفل هنا عن عمد الحديث عن هذه المشكلة فى ظل الامبراطورية الرومانية ، ومن بعد ذلك طوال العصور الوسطى الأوروبية ،

---

(٤) خصص كوينج فى مقاله المطول سالف الذكر « المدينة الكبيرة » قسما بأكمله عن تنميط المدن الكبرى » كما خصص (بريز) فى كتابه التحضر فى البلاد النامية فصلا تناول فيه هذه النقطة ·

ولو أن تلك العصور الوسطى هى التى شهدت لأول مرة بروز مشكلة العلاقة بين القرية والمدينة بشكل ملح (٥) ٠

حتى نصل الى مطالع العصور الحديثة ، فنلاحظ بصفة عامة أن المدن الكبرى قد ظهرت فى أوروبا فى وقت متأخر نسبيا ، بعـــد أن كان الإزدهار السياسى للمدن قد ولى منذ وقت بعيد ، واقصد نمو لندن وباريس فى القرن السابع عشر ، ومع ازدهارهما بدأ الجدل الكبير ـ الذى ما زالت آثاره متصلة حتى يومنا هذا ـ حول أهمية المدن الكبرى ٠ ولو أننا يجب أن نلاحظ مع ذلك أن المدن الكبرى قد تضاعفت عددا وحجما منذ ذلك التاريخ البعيد ٠ كما طلع القرن العشرون على المدن بمشكلات وأعباء جديدة ، كان لها تاثيرها ولا شـك على تحديد النظرة الى الموضوع ، بل حتى على مسميات « الأشياء » التـى يدور حولها الحديث ٠ فلدينا اليوم الى جانب المـــدن الكبـــرى ، المـــدن الميتروبوليتانية ، و « الأقاليم الحضـــرية » و « المجمعات الحضـــرية » Conurbations التى تمثل التحـــام عدة مدن كبرى معا ، كما نرى ـ على نحو متقارب ـ بالنسبة لتطور مدينة القاهـــرة الى « القاهرة الكـــبرى » (القاهرة + الجيزة + حلوان + شبرا ٠٠ الخ) ٠

ويتضح لنا مدى التحمس فى معارضة المدن الكبرى أو تمجيدها بدافع من اعتبارات سياسية فكرية معينة فى تمجيد فولتير للندن ، اذ اللافت للنظر أنه لا يتجه بالتمجيد الى باريس ، التى كانت تتميز بكل خصائص المدينة الكبيرة فعلا ، وانما الى عاصمة بريطانيا ٠ والســـبب : أن التقـــدميين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر كانوا يعتبرونها موئل التنوير وكعبته ، تماما كما كان الليبراليون الأوروبيون ينظرون الى مدينة أمستردام فى القرن

---

(٥) قدم زيوبيرج معالجة مفيدة للانماط الريفية الحضرية من منظور تاريخى ديموجرافى ، كما تناول باسهاب الانماط الريفية الحضرية فى المجتمعات الحضرية الواقعة فى مرحلة ما قبـل الصناعة ، وذلك فى مقاله : « الفروق الريفية الحضرية » المترجم فى : محمد الجوهرى وآخرون ، ميادين علم الاجتماع دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ص ١١١ ـــ ١٦٤ خاصة ص ١٢٥ وما بعدها (ترجم الفصل د ٠ محمود عودة) ٠

السابع عشر (٦) • وعلى النقيض من هذا موقف جان جاك روسو الـــذى اتخذ من المدينة موقفا سلبيا ، أما مونتسكيو فقد اعتبر المدينة جزءا من النظام الاقتصادى المنتج • وان كان الطريف حقا فى هذا الصدد موقف آدم سميث الذى شاب التشكك نظرته الى المدينة بشكل واضح ، بل وصل الأمر الى حد أن اعتبر وليام بليك W, Blake لندن رمزا للانسانية العالمية ، ومثـــالا لجنة الله على الأرض •

ومن العجيب فعلا ذلك الموقف الذى اتخذه توماس جيفرسون ـ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد ـ من المدينة ، فقد تكون لديه ابان اقامته سفير لبلاده فى باريس التى قوضت الثورة دعائمها التقليدية وخلقت فيهـــا حالة من الاضطراب ، تكون لديه احساس عميق بالنفور من المدن الكـــبرى وكل ما يتصل بها من أمور • ووجه العجب فى هذا الموقف أنه نقله الى حيز الواقع العملى بعد أن تولى زمام الأمور فى بلاده ، اذ اعتمد كل الاعتماد عـــلى الفلاحين الفقراء فى أمريكا ، ومنذ ذلك التاريخ اتسعت الهوة التى تفصل بين أبناء الشعب الأمريكى ، بين المزارعين وكبار رجال الأعمال ، بين الديمقراطيين والجمهوريين ، وهو الخلاف الذى اتضح فى التوتر الذى قام بين القسم الريفى من أمريكا فى أوائل القرن التاسع وبين مدينة نيويورك الكبرى ، وول ستريت فيها على وجه التحديد • ومن موقف جيفرسون هذا تكونت عاطفة مناوئـــة للمدينة الكبيرة ، ظلت مستمرة الى ما بعد نهاية الحرب الأهلية الأمريكية ، وما زالت آثارها ـ الواضحة أحيانا ـ باقية حتى يومنا هذا (٧) • ولهذه

(٦) انظر المصدر الهام التالى الذى يتضمن أكثر من دراسة مفيدة حول مختلف جوانب هـذا الموضوع :

Handlin, Oscar and John Burchard (eds.) The Historian and the City, Cambridge, Mass. 1963.

وخاصة المقالين الآتين :

Schorske. Carl E., The Idea of the City in European Thought : Voltaire to Spengler.

Thrupp Sylvia L., The City as the Idea of Sicial Order.

(٧) انظر مزيدا من التفاصيل حول هذاالموضوع في :

White Mortrn and Lucia, The intellectual versus the city. From Thomas Jefferson to Frank Lloyd wright, Cambridge, Mass., 1962.

وكذلك مقال من تأليف مورتون وايت وحدة فى الكتاب المشار اليه فى الحاشية رقم (٦) عنوانـــه :

Two stages in the Critique of the American city.

العاطفة القوية المناوئة الأساس القوى فى البناء السياسى الأمريكى ، وليست راجعة الى نتائج بحوث معينة ، فهى صدى لذلك الواقع وتعبير عنه ، والدليل على ذلك اصرارها على البقاء طوال هذه المدة ، حتى أن الزمان قد ضيع كثيرا من معالم الأساس الفكرى الذى قامت عليه ٠

وقد توصل مورتون ولوسيا وايت فى دراستهما التى سبقت الاشارة اليها (فى الحاشية رقم ٧) الى وجود مرحلتين أساسيتين مرت بهما هـذه الأيديولوجية ازاء المدينة ٠ ففى المرحلة الأولى سيطر موقف الرومانسيين ذوى الأصول الريفية فى اعتبار المدينة الكبيرة مفرطة فى التمدين بشكل مخل وضار ، أما فى المرحلة الثانية ـ التى جاءت بعد الحرب الأهلية ـ فقد سيطر صوت اعداء الرومانسية واللارومانسيين الذى اعتبر المدينة الكبيرة كيانا متخلفا عجز عن أن يحقق الآمال التى كانت معقودة عليه ، وقد كانت هـذه المرحلة الثانية ايذانا باختفاء الآراء والمواقف الرومانسية المناوئة للتحضر من الفكر الأمريكى ، كما كانت بداية دخول الفكر الواقعى فى الجدل الدائر حول نقد المدينة ، نراه بعد ذلك واضح التأثير فى كثير من الأعمال الروائية وفى الجيل الأول من علماء الاجتماع الحضرى ٠

أما الموقف فى فرنسا فمختلف عن هذا اختلافا بعيدا ، فلم تعرف فرنسا على طول التاريخ حركة مناوئة للمدينة الكبرى ٠ أما النقد الذى كان يوجه الى باريس فكان مقصودا به فرنسا كلها ، اذ لا يعرف التاريخ بلدا جعل من عاصمته رمزا وتجسيدا لثقافته بنفس الشكل الذى حدث فى فرنسا ٠

ويصف رينيه كونيج الموقف الألمانى من هذه المشكلة بأنه متناقض أشد التناقض ، على نحو قد يسيطر عليه الخلط والاضطراب فى بعض الأحيان (٨) ٠ ويعلق على الانتقادات التى وجهها فيلهلم هينريش ريل W. H. Riehl الى المدينة الكبرى فى عام ١٨٥٠ مستعيرا عبارة

---

(٨) قارن ، رينيه كونيج Kcenig المرجع السابق ذكره فى الحاشية رقم ٢ ـ ص ٦٢٤ وما بعدها ٠

بباردت Bahrdt التى يقول فيها : «لقد ثارت الحجج ضد المدينة الصناعية الكبيرة ، قبل أن تقوم لمثل هذه المدن قائمة » • وقريب من رأى فرديناند تونير Ferdinand Toennies الذى يعتبر المدينة والمدينة الكبيرة « أماكن تحقق المجتمع » ، أى المركب الآلى الصناعى من الناس فى مقابل « الجماعة » التى تمثل كيانا طبيعيا •

وهكذا ظلت أفكار العصور الوسطى عن المدن مسيطرة على فكر الاجتماعيين الألمان ، حتى يطالعنا فريدريك انجلز Engels فى كتابه « حالة الطبقة العاملة فى انجلترا » (١٩٤٥) بوصف جديد طريف له دلالته للمدن الصناعية الصاعدة فى ذلك الوقت ، فمن المؤكد أن تجربة لندن بالنسبة لانجلز كانت بمثابة صدمة قاسية وثيقة الشبه بتجربة روما لمارتن لوثر فى شبابه • ولكننا نلحظ بين السطور اعجابا خاصا : فلندن تمثل « عظمة انجلترا » ، وان كان انجلز يركز كما نعلم بشكل خاص على الأحياء المتخلفة ، ويبرز معالم الصورة فيها ، ولكنه اذ يفعل ذلك انما يعى كل الوعى أن ذلك الوضع راجع الى ظروف مرحلية مؤقتة • لابد لها أن تنتهى •

ولهذا حرصت « اللجان الملكية » البريطانية على دراسة الموقف أملا فى اصلاحه وتحسينه ، فمهدت بذلك السبيل للمصطلحين الاجتماعيين الذين شهدهم الثلث الأخير من القرن التاسع عشر • ولكننا نلحظ مع ذلك مواقف عاطفية خطيرة عند رجال مثل : باتريل جديز P. Geddes ، وابنزر هوارد E. Howard ، وريموند أنوين R. Unwin ، وفيكتور برانفورد V. Branford وغيرهم من المفكرين ممن أثرت أفكارهم فى آراء العالم الامريكى لويس ممفورد L. Mumford (٩) • كما اتضحت بعض آثار آرائهم فى الجهود الأولى التى بذلت من أجل انشاء « مدن الحدائق Garden Cities التى تمثل بدورها موقفا متطرفا كرد فعل للمدينة الجديدة •

المهم على أية حال أن الوضع هنا اتسم ببعض السمات الواقعية ، على خلاف ما رأينا فى ألمانيا فى نفس الفترة • ولا نعنى بالسمات الواقعية أى نوع من التبرير ، انما المقصود انها كانت تمثل رد فعل ، يحاول البحث عن

---

(٩) قارن رينيه كونيج ، المرجع السابق ، ص ٦٢٧ •

« تقويم » ـ على نحو ما ـ لهذا الوضع ، فسادت فى تلك الفترة ادانة للمستوى الجمالى الذى آلت اليه أوضاع المدن الصناعية الأولى بصفة عامة ، وهـــذا الموقف نفسه هو الذى صدرت عنه أوائل هذا القرن ـ وبعد ذلك أيضا ـ كثير من الفلسفات الهندسية المعمارية لتقويم هذا الوضع ، من خلال تخطيط المدن الصناعية الكبرى • وهى فلسفات وآراء لا تزال لها آثارها الباقية حتى يومنا هذا ، مثلا عند فرانك لويد رايت ، ولو كوربيزيية Le Corbusier وغيرهما من مشاهير المهندسين ، فكان هنا اذن اتجاهان : أحدهما يدين ويعيب وينتقد فقط ، والآخر يبحث عن مقاييس ومعايير جديدة (وان بدت خيالية فى كثير من الأحيان) •

ومع كل هذا ظلت كثير من الآراء والعبارات الرنانة ضد المدينة تتكرر ، وأبرزها وأشهرها تلك التى أطلقها شبنجلر ضد المدينة ، أو قل متنبئا فيها بانهيار المدينة باعتبارها قمة التطور المدنى،ولا يزال يحلو للبعض حتى الآن تكرارها برغم تغير وضع المشكلة• اذ مع بدء اطلاقها وترددها بدأ سكان المدن ـ فى البلاد الأوروبية ـ يخرجون منها ، ويعيشون على أطرافها ، وبدأت السيارة غزوتها للحياة الحديثة ، ـ فأصبحنا ازاء مشكلة جديدة ، ليست هى المدينة الكبيرة فقط ، وانما المدينة الميتروبوليتانية والمنطقة الميتروبوليتانية •• الخ وبدأ الناس يلاحظون أن الصناعة بدأت تهجر المدن الكبرى وتبتعد عنهـــا بسبب ارتفاع أثمان الأرض فيها • وبدأت المدن الكبرى تؤدى وظائف عـــدا الوظيفة الصناعية فأصبحت مركزا للخدمات ، والتجارة ، والاســـتهلاك الثقافى ، والثقافة الجماهيرية ، وهى جميعها أمور تتزايد اهمية وخطرا فى وقت يتزايد فيه وقت الفراغ باستمرار • ان المدينة الكبرى فى عالم اليـــوم كيان مختلف كل الاختلاف عن مدينة القرن التاسع عشر التى دار حولهـــا الجدل ، وترددت بشأنها الانتقادات •

ونؤكد هنا على أن وجه الخطورة فى هذه المواقف المتطرفة ـ علاوة على انها تحجب عنا رؤية الواقع على حالته ـ فى أنها تستثير مواقف مضـــادة على الطرف الآخر تماما ، بحيث تسير المناقشة فى متاهات لا نهاية لها . وتتحول المعايير الموضوعية الى أحكام قيمة لا طائل للعلم من ورائها • ويتضح مثل هذا الموقف المضاد المتطرف الذى يمكن أن يكون موجها ضـد

آراء ريل ، وشبنجلر ، وممفرد فى عبارات الكسندر روستوف A. Ruestow التى جاء فيها : « ان المدينة هى قمة نمو الثقافات الراقية » ، ففى المدينة يتم التعاون الذى تشوبه روح المنافسة الرياضية وتحكمة ظروف البناء الطبقى وعلاقات القوة فى المدينة • لذلك نرى أن قيام المدن هو الشرط اللازم الذى لا غنى عنه لأية ثقافة راقية والمدينة هى مركز الانتاج النموذجى لكل الثقافات الراقية ، لذلك نقول « ان كل ثقافة راقية هى بالضرورة ثقافة حضريه » (١٠) • ولا يمكن فيما أعتقد أن يصور أحد الطرف الآخر بعبارات أحد من ذلك • وحتى لو دفع البعض بأن ذلك الكلام قد قيل عن المدن القديمة ، فاننا ننبه الى أن خطورة هذه الآراء المتطرفة ـ ان ادانة أو تمجيدا ـ لا تفرق كثيرا بين مدن العالم القديم ومدن اليوم • وهى فى حكمها على مدن اليوم تضع نصب أعينها دائما مدن العالم القديم • أو قل انها ـ فى أخف الأحوال ـ تهاجم مدينة اليوم ، وفى ذهنها صورة المدينة فى القرن التاسع عشر ، اذا أن هذا التحيز هو العامل الأول المسئول عن اختلال المنظور ، وبالتالى عن عدم دقة الحكم •

تتبقى بعد هذا نظرة علم الاجتماع الى المدينة ، وهى نظرة ـ والحق يقال ـ تتميز بكثير من الواقعية والموضوعية ازاء تلك المواقف الشاذة التى عرضنا جانبا منها من قبل ، فمنذ وقت مبكرا تنبه الاجتماعيون الى الظواهر الاجتماعية المصاحبة لازدياد الكثافة ، وهى ظواهر وثيقة الصلة بتكوين المدن الكبرى ، ويمكننا أن نتبين هذا الموقف عند أوجيست كونتComte وان كان قد ورد فيما بعد بشكل أوضح عند كل من كارل ماركس واميل دور كيم E. Durkheim فقد ميزوا جميعا بين « حجم » السكان و « كثافة » السكان ، ملاحظين أن الكثافة ظاهرة حضرية اساسا ، ثم أشار دوركيم علاوة على هذا الى العلاقة البنائية بين تقسيم العمل وقيام المدن ، ثم نجد عند بعض العلماء الألمان ، وفى وقت مبكر نسبيا (١٩٠٣) ، أمثال كارل بوشر K. Buecher وفردريك راتزال F. Ratzel وجورج فون ماير G. von Mayr وجورج زيمل G. Simmelوغيرهم ، نجد بعض الأسس ذات مستوى تخصصى رفيع • بعضها ينصب على النواحى

---

(١٠) أنظر كونيج ، المرجع السابق ، ص ٦٢٧ •

الثقافية التاريخية ، والبعض الآخر على الجوانب الجغرافية الديموجرافية للبناء الاجتماعى للمدينة • يضاف الى كل هذا الدفعة القوية التى تلقتهـا دراسات الاجتماع الحضرى فيما بعد من خلال دراسة ماكس فيبر M. Weber عن المدينة (١١) • ثم يبدأ بعدها تطور الدراسات الاجتماعية الحضرية فى انجلترا ، وأمريكا من بعدها ، والتى أصبحت كما أشرنا فى البداية موئل هذا النوع من الدراسات وصاحبة النصيب الأوفى من الانتاج الذى ظهر فيه •

***

نخلص من كل هذا الى أننا أصبحنا قادرين على تمثيل وجه القصـور فى كل تلك الآراء التى بالغت فى موقفها من المدينة ، ادانة أو تمجيدا ، وهـو انها عجزت عن رؤية هذا الواقع الجديد الذى يفرض نفسه ، والذى يتطلب منا شيئا آخر مختلفا عن الادانة وعن التمجيد • نحن نحتاج بالتحديد الى تبين تلك الفروق بين صورة كل من المدينة القديمة ومدينة القرن التاسـع عشر وبين واقع المدينة فى عالم اليوم •

ولكن ان كنا فى حاجة الى ذلك فنحن فى حاجة أشد الى رؤية الفـارق الكبير بين واقع المدينة الغربية وواقع مدينة البلاد النامية • ويكفى دليـلا على ذلك كتاب جيرالد بريز عن التحضر فى البلاد النامية ، كم هى مختلفـه مدن البلاد النامية ، فى ظروف نشأتها ، وعوامل نموها ، وسرعة هذا النمـو ، وتركيبها ، ونوع استخدام الأرض فيها •• الخ • عن مدن العالم الغربى •

ان الوعى بهذا الفارق الخطير ، والموقف العلمى المحايد من التحضـر أساس ضرورى وهام لقيام دراسات سوسيولوجية حضرية فى بلادنا ، بلاد العالم الثالث (١٢) •

---

(١١) انظر كونيج ، المرجع السابق ، ص ٦٢٧ — ٦٢٨ والمراجع الواردة هناك •

(١٢) نجدر الاشارة في هذا الصدد الى الملاحظات التى قدمها الخبير السويسرى في شئون البلاد النامية الاستاذ ريشارد بيرندت R. Behrendt في كتابه المعنون : الاستراتيجية الاجتماعية للبلاد النامية » •

Soziale Strategie fur Enlwicklungslander, Frankfurt, 1965.

خاصة الفصل الخاص بالعلاقة بين الريف والمدينة ، ص ٣١٧ وما بعدها •